الفصل الرابع

أبجدية الحوار الثقافي في كتاب فصل المقال لابن رشد

كتـــب هذا البحث بمناسبة مؤتمر الفلسفة الإسلامية وبناء الإنسان لكلية دار العلوم جامعة القاهرة ، ونشر في مجلة إبداع ، العدد (١١) نوفمبر ١٩٩٧.

أولاً : المقدمة :

النظرة الجدلية للحضارة الإنسانية هى كل واحد متطور في الزمان ، وهذه الوحدة لا تلغى الثقافات المختلفة للشعوب ، فهي أعضاء ذلك الكل، يحيا أى عضو بحياة الكل ، ويموت أي عضو إذا بتر نفسه منفصلا منعزلا عن الكل . وتظل الثقافات حية في تواصل ما دامت قادرة على الحوار، فالحوار هو جوهر الحياة الثقافية ، ومبعث النهضة الحضارية .

والحوار الإيجابي الذي يسمح بتجاوز الحدود الجغرافية وتجاوز إشكالية الندية والهوية لا يكون ممكنا إلا في إطار عقلنة الحياة الثقافية ، ليكون الحوار مستندا إلى القيم الحضارية ، وبالتالي يكون الحوار بين الثقافات لا بوصفها ثقافة شرقية وغربية ، ولا بوصفها ثقافة إسلامية أو مسيحية ، ولكن بوصفها ثقافات إنسانية . واستقراء التاريخ خير دليل على ذلك، فحوار الفلاسفة المسلمين مع الثقافة اليونانية ، وكيف أثمر ذلك الحوار الحضارة الإسلامية . وأيضا حوار أوربا مع الحضارة الإسلامية قرب نهاية العصر الوسيط ، وكانت ثمرته الحضارة الأوربية الحديثة ، فالحوار الإيجابي هو حوار القيم الحضارية ، فهى الأبجدية الإنسانية المشتركة التى يسمح الوعى بها باستيعاب الآخر وتمثله أو تجاوزه .

وعلى هذا فالبحث في أبجدية الحوار الثقافي في فصل المقال هو البحث عن القيم الحضارية التى ينطوى عليها مضمون هذا الكتاب ، والتي يمكن أن تؤدى دورا في عقلنه الحياة الثقافية في عصر تحجرت فيه الهوية بفعل تغييب العقل عن فكرنا وواقعنا إلى حد صار فيه الحوار الثقافي والتواصل الحضاري مجرد أمل يراود الخيال .

والبحث عن أبجدية الحوار الثقافي يذكرنا بالقول المأثور عن أرسطو " النطق نطقان : نطق خارجي ، ونطق داخلي " .. والخارجى هو اللغة هو اللسان متعدد بتعدد الأجناس والأوطان ، متطور في تقدم الزمان .. بينما النطق الداخلى هو العقل ، وهو كما يقول ديكارت " أعدل الأشياء قسمة بين الناس [1] لا فرق بين زنجي وأبيض ، ولا بين شرقى وغربي ، ولا بين فقير وغنى ، فالعقل هبة طبيعية لكل البشر " .

ولكن العقل كما يقول الفيلسوف الإنجليزي جون لوك (١٦٣٢ - ١٧٠٤) هو مجموعة من القدرات المعرفية ليست فطرية ولكنها تربى . وتربية العقل ليست قضية منوطة بالفرد فقط ، بل هى قضية مجتمعية . وقد اتخذت لها مسار خاص في المجتمع الغربى، انتقل فيه الغرب من العصر الوسيط إلى الأحياء في القرن الرابع عشر . والإصلاح الديني في القرن الخامس عشر ، والنهضة في القرن السادس عشر إلى أن وصل إلى عصر العقل العصر الحديث في القرن السابع عشر والتنوير في القرن الثامن عشر والتاسع عشر ، ثم القرن العشرين عصر العلم . وقد أثمر ذلك المسار العديد من المذاهب الفلسفية : العقلية والنقدية ، والمادية الجدلية ، والوجودية والوضعية المنطقية ، وفلسفة التحليل اللغوي ، والبينيوية ، والتفكيكية . وجميع هذه المذاهب هى تعبير عن تطور بنية العقل في الحضارة الأوروبية ، وقد أثمر ذلك المسار أيضا الثورة العلمية والتكنولوجية وغزو الفضاء والإنترنت .

---

(١) رينيه ديكارت ، مقال عن المنهج ، ترجمة محمود محمد الخضيري ، دار الكتاب العربي ، ط ٢ ، ص ١٠٩ .

وبهـذا صـار العقـل والعلم أهم القيم الحضارية في الثقافة الغربية . ومسيرة العلم كما يقول برنال لم تكن وليدة القرن العشرين فقط ، بل " بدأت بالسـاحر والطـباخ والحداد ، هم علماء ما قبل التاريخ ، ومن بعدهم تتابع ركب من العلماء حتى أصبح العلم اليوم مؤسسة كبرى يتفرغ لها عشرات بل مئات الألوف من المتخصصين ، وتغلغل أثر العلم في كل نواحي يعيش فيها الإنسان ، بل امتد أثره في كل نواحي البيئة الطبيعية والبيولوجية والاجتماعية الـتى يعـيش فيها الإنسان، بل امتد أثره إلى أعمق وجدانات الإنسان ، وإذا كـان الحـق كما قال ديكارت بالعلم يمكنا أن نسود الطبيعة ونملكها بعد أن كانـت تسودنا وتملكنا ، فبالعلم يمكننا أن نسترد مجتمعنا ، ونخطط لمستقبلنا ونسـيطرْ إلـى حد كبير على مصيرنا "[1]. وهذا هو مسار العقل والعلم في الحضارة الغربية طريق متصل بلا انقطاع يمتد عشرين قرنا من الزمان .

وعلـى العكس يردنا البحث في الفلسفة الإسلامية إلى الماضى عشرة قـرون أو يـزيد، فجـوة عميقة وهوة متسعة خلقها صراع القوى في واقع المجتمع الإسلامى من شرقه إلى غربة . حيث انتصرت قوى الغلق والتزمت ، فأجهضـت الفلسفة وكفر الفلاسفة ، وكان موقف الغزالي أصدق تعبير عن ذلـك التزمت وعليه تقع المسئولية في توقف الفلسفة الإسلامية واتساع الهوة بينـنا وبيـن الحضـارة المعاصـرة . مما يجعل إمكانية الحوار والتواصل الحضارى مكبلة بالموانع والمحاذير . مما يجعلنا في حاجة إلى البحث النقدى في ثقافة الأنا ، ويكون غاية النقد أمرين : الأول الكشف عن موانع التواصل الحضـارى فـي ثقافتنا ، والثاني : الكشف عن القيم الحضارية التى وجهت مسار الحوار الثقافي في الماضي ، فهي بمثابة الدرس المنهجى المستفاد الذى

(١) ج. د. برنال ، موجز العلم في التاريخ ، إعداد سعيد الفيشاوي ، الفارابي ، ١٩٨٢، ص ٧ ، ٨ .

يمكـــن أن ينبه الذاكرة الثقافية إلى العناصر المستنيرة في تراثنا الفلسفي التى تشـــكل بفكرها قيما حضارية نفتقدها في حاضرنا الثقافي . فما هى تلك القيم وكيف عبر عنها كتاب فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال .

ثانيا : العقل وعقلنه الهوية الثقافية :

لـــو بحثـــنا عن مقام العقل في الثقافة الإسلامية ، فقد تبدو الإجابة في الظاهـــر سهلة ميسورة استنادا على النصوص القرآنية والأحاديث النبوية . وأن القـــرآن والســـنة قد اكبرا العقل ، وادعى إلى تعظيمه وإجلاله ، فنعدد الآيات ونذكر الأحاديث النبوية التى تحض على نبذ التقليد ، وتعطيل العقول ، وتـــنهى عـــن الهوى والميل إلى المصالح الخاصة ، وتمجد الحرية العقلية وتســـجل علـــى المتزمتين أثم ما يفعلون . وعلى هذا يكون كل من أغمض عينيه عن العقل في القرآن والسنة جاحد للحق ، ملوم .

ولكن بالرغم من كل هذا نقول أن الفارق شاسعا بين ما ينبغي أن يكون وهو القرآن والسنة ، وبين ما هو متحقق في واقع المجتمع الإسلامي ، وهو واقـــع يعكس صراع القوى الاجتماعية صانعة الثقافة الإسلامية ، حيث نجد المواقـــف المتبايـــنة من العقل : البعض يجعله عقلاً أداتياً ويغيبه ويجمده ، والـــبعض الأخر يجعله منهجا ومذهبا يجله ويقدمه واقعا ثقافيا ، فانشطرت بذلـــك الثقافة الإسلامية إلى قسمين ، واكتسب كل شطر قسماته الفكرية من طبيعة القوى الاجتماعية المتصارعة إلى ثقافة الغلق والجمود ، وثقافة العقل والانفـــتاح والحـــوار الثقافي ، وأعنى بثقافة العقل والانفتاح والحوار الثقافي ثقافة الكندي ، والفارابي وابن سينا ، وابن الهيثم .. إلخ ، في مقابل الغزالي والتابعين له .

وعلـــى هذا فإن اختيار كتاب فصل المقال لابن رشد هو اختيار محدد بثلاثة أمور :

الأول : أن ابن رشد في هذا الكتاب يلخص منهجه في الفلسفة ونظريته فـــي المعـــرفة .. **وثانيا** :على أساس نظريته في المعرفة يبحث العلاقة بين الحكمة والشريعة .. **وثالـــثا** : على أساس ما انتهى إليه في بحث العلاقة بين الـــبرهان والإيمان يقوم بفحص نقدي لثقافة الأنا، أو الواقع الثقافي ، وتكون الخلاصـــة أن الإيمان الذي وصف الله به العلماء خاص بهم يجب أن يكون بالـــبرهان ، وإذا كان بالبرهان لا يكون إلا مع العلم بالتأويل ، لأن الله عز وجل قد أخبر أن لها تأويلا هو الحقيقة " [1].

والبرهان طريق الحكمة ، وبهذا رد ابن رشد للعقل اعتباره ، واحل له ما حرمه الغزالي عليه من البحث في الإلهيات على نحو ما جاء في كتابيه ، المنقذ من الضلال ، وتهافت الفلاسفة .

ويعمل ابن رشد على تدعيم شرعية العقل ، فيضفي عليه شرعية دينية فيـــتأول منهج البرهان أو القياس العقلي من داخل النص الديني ، وبواسطة الـــتأويل يحافظ ابن رشد على الهوية الثقافية ويعقلنها ، في قول : أن الشرع قد أوجب النظر بالعقل في الموجودات واعتبارهـــــــا ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَـــارِ﴾ (سورة الحشر، آية : ٢) ، وكأن الاعتبار ليس شيئا أكثر من اســـتنباط المجهـــول من المعلوم واستخراجه منه . وهذا هو القياس العقلي . وهـــذا الـــنحو من النظر الذي دعا إليه الشرع وحث عليه هو أتم أنواع النظر بأنواع القياس ، وهو المسمى برهانا " [2] .

---

(١) القاضـــي الفاضـــل محمـــد ابن أحمد ابن رشد ، فصل المقال ، والكشف عن مناهج الأدلة ، المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر بمصر ، المطبعة الثانية ، ص ١٩ .

(٢) ابن رشد ، فصل المقال ، ص ١٠ .

والبرهان هو منهج الفلسفة ، ونظرية في المعرفة ، هو طريق الفلسفة وطـريق الخواص في الدين ، وهم أهل التأويل اليقيني ، البرهانيون بالطبع والصـناعة ، أعـنى صـناعة الحكمة (والحكمة هى النظر إلى الموجدات واعتبارها بحسب ما اقتضته شرائط البرهان) [1] ، فإن أدى النظر البرهاني إلـى نحـو ما من المعرفة بموجود ما ، فلا يخلو ذلك الموجود أن يكون قد سكت عنه في الشرع أو عرف به .

فإن كان مما سكت عنه فلا تعارض هناك ، وهو بمنزلة ما سكت عنه من الأحكام فاستنبطها الفقيه بالقياس الشرعي .

وإن كانت الشريعة نطقت به فلا يخلو ظاهر النطق أن يكون موافقا لما أدي إلـيه البرهان فيه أو مخالفا ، فإن كان موافقا فلا قول هناك ، وإن كان مخالفا طلب هناك تأويله [2].

هذه العبارة الأخيرة هى كمال عقلانية ابن رشد ، فما يوافق العقل من الشـريعة يقـبله ، وما يخالفه يجب تأويله (والتأويل هو فرض الخواص ، وفرض الجمهور هو إمرارها على ظاهرها) [3] .

ولكـن مفهـوم الخـواص والراسخون في العلم يختلف بين ابن رشد والغزالـي، فهو عند ابن رشد يخص الفلاسفة كما يخص العلماء ، بينما عند الغزالي يتحدد مفهوم الراسخون في العلم بالعارفين بالله (أي المتصوفة) ، وعلى هذا ليس للعقل أو البرهان مجالا في الدين أو الإلهيات عند الغزالي ، بـل بـتر الغزالي العلاقة بين العقل والدين . وهذا هو الذي جاهد ابن رشد

---

(١) ابن رشد ، فصل المقال ، ص ١٣ .

(٢) ابن رشد ، فصل المقال ، ص ١٦ .

(٣) ابن رشد ، فصل المقال ، ص ٣٠ .

لـتجاوزه ووصل ما بتره الغزالي بأن أسس الإيمان على البرهان والتأويل ، وهو إيمان الخواص الفلاسفة الراسخون في العلم (ورثة الأنبياء) [١].

وتمـام عقلانـية ابـن رشد واتساق منهجه تبدو في دعوته إلى تأويل الإجمـاع إذا خـالف الإجماع العقل . وهذه القضية لها ثلاثة أبعاد في غاية الأهمية في تجديد وتطور البناء الثقافي :

البعد الأول : الـثقة بالعقل ، والثقة بالعقل واتخاذه معيارا للحكم والارتكان إليه يدفع بالثقافة والفكر إلى آفاق بعيدة ، ويهيأ لبعث حضاري جديد .

والبعد الثاني : رغـم أن التأويل هو مهمة الخواص، الراسخون في العلم إلا أن الـتأويل عمـل فردى عند ابن رشد ، ولأن العقل معيار للحكم ، فالحقيقة في جوهرها عقلية ، وهنا صلب العقلانية.

والبعد الثالث : هـو مرتـبط بالبعديـن السابقين ، وهو أن مع التأويل لا مجـال للتكفـير ، لأن ابـن رشد يرجح كفة العقل على كفة الإجماع ، ويحدد شرط الأخذ بالإجماع ، أن يكون إجماعا يقينيا ، ولكن (الإجماع اليقيني في المسائل النظرية غير ممكن ، وإن كان ممكنا تقرر ذلك في العمليات) [٢].

العقـل في الحكمة والشريعة برهانا وتأويلا ، والتأويل والبرهان هما فصـل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من اتصال . لأن بالتأويل والبرهان تـتحقق عقلـنة الهوية الثقافية . وعقلنة الهوية تسمح بالحوار الثقافي ، لأن مناقشـة المشكلات أو القضايا الدينية لا تكون من حيث هى معتقد ، بل من

---

(١) عاطف العراقي ، ابن رشد مفكرا عربيا وراند للاتجاه العقلي ، المجلس الأعلى للثقافة ، ص ٤٤٨ .

(٢) ابن رشد ، فصل المقال ، ص ١٧ .

حيث هي قضايا معقولة ، تخضع للبرهان والفهم العقلي ، فيكون الحوار ممكنا مع كل من كان أهلا للعقل .

ثالثاً : النقد وتجاوز ثقافة الغلق :

بقدر ما يكون النقد في كتاب فصل المقال موجها إلى الفكر الديني ، فهو موجه إلى الواقع الثقافي بشكل عام . والنقد في جوهره جدل ينطوي على السلب والإيجاب ، فالكتاب بقدر ما هو إعادة بناء للثقافة الإسلامية ، هو هدم لأركان الغلق فيها. والهدم والبناء عند ابن رشد محكوما بنظريته في المعرفة ومنهجه في الفلسفة مما يسمح له بكشف تناقضات الثقافة الإسلامية التي تشكل عوامل جمودها وانغلاقها ومعوقات تطورها ، والتي يسعى النقد لتجاوزها .

وكما تبدو قضية فصل المقال هى قضية العلاقة بين الحكمة والشريعة ، غير أن الواقع الثقافي وعلى قمته الغزالي قد فصل بين الطرفين . وإعادة بناء هذه العلاقة من منظور ابن رشد هو إعادة بناء للثقافة الإسلامية . ومقتضيات هذا البناء تتطلب عند ابن رشد نظرية في المعرفة أو طرق التصديق المختلفة ، ويبين أن الشرع قد اشتمل على جميع طرق المعرفة ، وهى: المعرفة الخطابية، والمعرفة الجدلية ، والمعرفة البرهانية ، ثم يقول ابن رشد أن تعلم البرهان عسير وبحاجة إلى طول الزمان ، ولما كان مقصود الشرع تعليم الجميع ، فإن طرق التصديق الخطابية والجدلية ، هى عامة لأكثر الناس ، وعلى العكس يكون البرهان طريقا خاصا بأقل الناس .. إنه طريق الخواص طريق الفلاسفة .

وعلى هذا فإن أول جوانب النقد عند ابن رشد واقع على نظرية المعرفة ، وعلى أساس نظريته في المعرفة ينقد ما اقترفه الغزالي على

الفلسفة هو جناية على العقل في الثقافة الإسلامية . لأن المعرفة البرهانية أو القياس العقلي هو طريق الحكمة وطريق إيمان الخواص (لأن ما يتطرق إليه التأويل لا يدرك إلا بالبرهان ، ففرض الخواص فيه التأويل ، وفرض الجمهور حمله على ظاهره) [1] .

فمن خلال نظرية البرهان استطاع ابن رشد أن يعيد الصلة بين الدين والفلسفة ، لتكون الحقيقة الدينية بالنسبة للفيلسوف حقيقة عقلية . ومن إطار الحقيقة العقلية أو نظرية البرهان تكون العلاقة بين الدين والفلسفة ، وبالتالي يتجاوز موقف الغزالي وثقافة الغلق . ومن أجل هذه الغاية يتم نقده لجوانب الثقافة الإسلامية في ضوء نظريته في المعرفة . ويرى الواقع الثقافي موازيا لطرق المعرفة ، فالمعرفة الخطابية والجدلية توازى الثقافية الكلامية أو علم الكلام ، وفي نقد ثقافة الجدل يضع ابن رشد كتاب " الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة " .

ويضم الواقع الثقافي أيضا الثقافة الفلسفية ، وهى ثقافة البرهان ، مثل الفارابي وابن سينا ، وهى ثقافة الراسخين في العلم ، ودفاعا عنها يضع ابن رشد كتابه (تهافت التهافت) يقوم فيه بالرد على كتاب " تهافت الفلاسفة للغزالي " . فيذكر ابن رشد خلاصة نقده في كتاب " فصل المقال " ، وهو يرى أن الغزالي قد أخطأ في تكفير الفارابي وابن سينا في كتابه المعروف بالتهافت لقولهم بثلاث مسائل (القول بقدم العالم ، وبأن الله سبحانه وتعالى لا يعلم الجزئيات ، وفي تأويل ما جاء في حشر الأجساد وأحوال الميعاد) .

وفي قضية التأويل يقول ابن رشد (إذا لم يكن أهل العلم يعلمون التأويل لم تكن عندهم مزية تصديق توجب لهم من الإيمان به ما لا يوجد عند

---

(١) ابن رشد ، فصل المقال ، ص ٣٠ .

غـــير أهل العلم . وقد وصفهم الله تعالى أنهم المؤمنون به . وهذا إنما يحمل علـــى الإيمـــان الـــذي يكون من قبل البرهان ، وهذا لا يكون إلا مع العلم بالتأويل) [1].

وقضية التأويل هى الركن الثاني في مواجهة ونقد أركان الغلق الثقافي ، ذلك لأن التأويل عند ابن رشد مرتبط بنظرية البرهان ، وهو يقول : إن ما يتطرق إليه التأويل لا يدرك إلا بالبرهان ، ومعنى هذا أن التأويل بمعزل عن نظرية البرهان هو جدل كلامي لا دليل عقلي عليه . ومن إطار العلاقة بين الـــتأويل والـــبرهان تكون رؤية الفيلسوف للحقيقة الدينية رؤية عقلية ، ومن إطـــار الحقـــيقة العقلية يصرح ابن رشد بضرورة تأويل الإجماع إذا خالف العقل ، وبالعقل يكون البناء الجديد للثقافة الإسلامية .

ولا يغفـــل الموقـــف النقدى في فصل المقال ضرورة الاهتمام بالتراث الإنســـانى مهما كان أجنبيا أو قوميا ، لأن في طريق المعرفة الإنسانية يجب أن يســـتعين المـــتأخر بالمتقدم ، أى لا يجب إهمال التراث المعرفي للبشرية حين الفحص أو البحث في أي قضية معرفية ، لأن من العسير أن يقف واحد من الناس من تلقاء نفسه على جميع ما يحتاج إليه من أنواع المعرفة ، فيقول ابـــن رشـــد ينبغى أن نضرب بأيدينا على كتب القدماء ... وننظر في الذي قـــالوه وأثبـــتوه فـــي كتـــبهم ، فإن كان موافقا للحق قبلناه منهم وسررنا به وشـــكرناهم علـــيه، وما كان غير موافق للحق نبهنا عليه وحذرنا منه [2] . والمعنى المقصود بالحق هنا هو العقل ، فهو أساس النقد والحوار مع الثقافات الأخرى . كما هو أساس النقد في ثقافة الأنا .

---

(1) ابن رشد ، فصل المقال ، ص ١٨ ، ١٩ .

(2) ابن رشد ، فصل المقال ، ص ١٣ .

رابعا : التسامح الثقافي والانفتاح على الثقافات الإنسانية :

ليس كتاب فصل المقال نظرية في التسامح الثقافي بشكل مباشر يرتشف منه كل من كان مشغلا بقضية التسامح . ولكن ذلك الكتاب يجسد المضمون الحقيقي لقيمه التسامح في داخل الموقف الثقافي عند ابن رشد . إننا نقرأ التسامح الثقافي كقيمة إنسانية من بين السطور ، سواء في موقفه من ثقافة الأنا أو الثقافات الإنسانية الأخرى .

وعلى ذلك أبدأ أولاً بتوصيف ظواهر هذه القيمة في مضمون فصل المقال ، وثانياً أحاول الكشف عن الأساس المعرفي لهذا القيمة الإنسانية التى يعبر عنها فصل المقال :

أولاً : توصيف ظواهر قيمة التسامح في فصل المقال :

من حيث ظواهر التسامح الثقافي يأتي في المقدمة اقتناع ابن رشد الشديد ، أن أى صناعة أو علم لا يمكن أن تكون صناعة إنسان بمفردة ولا قوم بعينهم ، ولا مجتمع واحد ، بل البشرية جمعاء ، فالخبرة الإنسانية تتجاوز حدود الفرد والجماعة ، والمجتمع إلى العالم الأرحب ، لذلك يقول ابن رشد في بحثه عن القياس العقلى : " إذ تقرر أنه يجب بالشرع النظر في القياس العقلي وأنواعه .. يجب علينا أن نبتدئ بالفحص عنه ، وأن يستعين في ذلك المتأخر بالمتقدم حتى تكمل المعرفة به ، فإنه عسير أو غير ممكن أن يقف واحد من الناس من تلقائه وابتداء على جميع ما يحتاج إليه من ذلك " (١).

---

(١) ابن رشد ، فصل المقال ، ص ١١ .

ومما يبدو من مظاهر التسامح عند ابن رشد أنه لا يقيم حواره مع الثقافات الإنسانية من منظور عقائدى ، لذلك يقول وهو بصدد البحث في القياس العقلي أو البرهان (يجب علينا أن نستعين على ما نحن بسبيله بما قاله من تقدمنا في ذلك ، وسواء كان ذلك الغير مشاركا لنا أو غير مشارك في الملة ... وأعنى بغير المشارك من نظر في هذه الأشياء من القدماء قبل ملة الإسلام ، فينبغي أن نضرب بأيدينا إلى كتبهم فننظر فيما قالوه من ذلك ، فإن كان كله صوابا قبلناه منهم ،وإن كان فيه ما ليس بصواب نبهنا عليه"[1]. ولأن معيار القبول والرفض عند ابن رشد هو العقل ، فهو يتجاوز الهوية العقائدية للثقافات إلى مضمونها وقيمها العلمية .

وفي مقابل الأخذ بالتسامح ينقد ابن رشد التزمت الثقافي ويعيب على المتزمتين ضد الفلسفة ، فيقول : " إن مثل من منع النظر في كتب الحكمة من هو أهل لها ، من أجل أن قوما من أراذل الناس قد يظن بهم أنهم ضلوا من قبل بنظرهم فيها ، مثل من منع العطشان من شرب الماء البارد العذب حتى مات لأن قوما شرقوا به فماتوا ، فإن الموت عن الماء بالشرق أمر عارض ، وعن العطش ذاتى وضرورى "[2].

وأهم موقف يشير إلى التسامح الثقافي عند ابن رشد هو موقفه في نقد الغزالي لتكفيره الفلاسفة ، وإجهاض الفلسفة .

ثانيا : الأساس المعرفي للتسامح الثقافي عند ابن رشد :

التأسيس المعرفي للتسامح يقوم على نظرية ابن رشد في المعرفة ، وهى ثلاثة طرق : الخطابية ، والجدلية ، والبرهانية .. وما يهمنا هنا في

---

(1) ابن رشد ، فصل المقال ، ص١٢ .

(2) ابن رشد ، فصل المقال ، ص ١٤ .

قضية التسامح هو نظريته في المعرفة البرهانية والتأويل . وهما معا طريق المعـرفة عـند خواص الراسخين في العلم . وإيمان العلماء يجب أن يكون بالـبرهان ، وإذا كان بالبرهان لا يكون إلا مع العلم بالتأويل ، لأن الله عز وجل أخبر أن لها تأويلا هو الحقيقة ، والبرهان لا يكون إلا على الحقيقة [1]

وإذا كـان البرهان والتأويل لا يكونان إلا على الحقيقة ، فلا يمكن أن يقرر في التأويل إجماع ، ومن ثم يصرح ابن رشد بضرورة تأويل الإجماع إذا خالف الإجماع العقل .

ومتى كانت الحقيقة مبررة بالبرهان والتأويل ، فهى حقيقة عقلية ، وما دمـنا فـي إطار العقل والمعرفة فنحن في الإطار الإنساني . ومن ثم يكون التسـامح واجـبا وجوبـا عقليا مع مختلف العقائد والمذاهب والملل والعلوم والصـنائع ، ومن ثم يقف ابن رشد في مواجهة التزمت والجمود والانغلاق والتكفير ، لأن ما يملكه العقل حقيقة عقلية .

وبعـد .. تلـك هى أبجدية الحوار الثقافي : العقلانية والنقد والتسامح الثقافـي، هى القيم الحضارية التى تجسدت في محتوى فصل المقال ، وهي التي تشكل الأساس في كل حوار حضارى بين مختلف الثقافات .. وهذه القيم ليسـت أساسـا للحوار الثقافي فقط ، بل هى أساسا للإبداع والتطور الثقافي الذي تكون القدرة على الحوار هى أولى خطواته .

* * *

[1] ابن رشد ، فصل المقال ، ص ١٩ .